العادة ونتائجها

بقلم جبر افندي ضومط استاذ الفلسفة والرياضيات في مدرسة كفتين

(تابع ما قبلهُ)

اذا رسخت عادة السكر انحرف فعل الغاذية في السكّير وخرج مزاجهُ عن اعتداله وورث انسالهُ ما اكتسبتهُ اباهُ عادة السكر وادمانهِ من مزاج غير مزاجهِ الاول ومن آثار هذا المزاج في قوام العائلة انهُ يضعفها كل الضعف وفي آدابهم انهُ يقوّي الشهوة ويضعف سلطان الارادة ولا سيما في مقاومة الميل الى المسكر . وقد تجيء ابناء السكارى تارةً وهم كثيرٌ بلهًا او معتوهين واخرى على غاية من التهوّر والاستعداد للجنون حتى انهُ يظهر فيهم لاقل الاسباب الداعية لهُ . وهم ابدًا شديدو الميل خلقةً لشرب المسكرات حتى انّ الواحد منهم يرى من نفسهِ كانما هو مدفوع بالرغم عنهُ الى الشرب لا يستطيع مقاومةً واذا قاوم فقد لا تجديهِ المقاومة نفعًا في كثير من المرّات لما لميلهِ هذا من القوّة والاستحكام في فطرتهِ

واكثر الذين خبروا احوال السكر والسكارى من الاطباء وغيرهم يتّفقون على ما ذكرنا فقد ذكر الدكتور هوْ في تقريرهِ عن العتَه والبلاهة خلقةً في ولاية ماساشستس من الولايات المتحدة وقد عني باحصاء المعتوهين هنالك ما معناهُ اني دقّقت البحث في امر [illegible] انهُ وجد من [illegible] كانوا [illegible] وقد قال الدكتور دون وهو من اخبر الناس في احوال المعتوهين في انكلترا ان تقرير الدكتور هوْ ليس فيهِ شيء من المبالغة اصلاً وكتب الدكتور برون وهو من اكابر المحققين في هذا الموضوع ايضًا وقد كان مديرًا لاحدى البيمارستانات الكبيرة (واظن في سكوتلاندا) ما محصّلهُ . ان السكير لا يؤذي جهازهُ العصبي او يضعفهُ فقط انما هو يجلب فوق هذا امراضًا عتليّة على انسالهِ من بعدهِ فبنانهُ يولدن عصبيّات المزاج هستيريّاتو وبنوهُ يجيئون ضعاف البنية شكسي الاخلاق متطرفين في الاذواق والتصرّفات يتهيجون شديدًا لغير سبب ظاهر يوجب ذلك التهيج ويتململون اذا نُدبوا لاتمام ما يقضي عليهم بهِ الواجب

ومما لاحظه الدكتور هوّ انّ ابناء السكارى ضعاف البنيّة ضعاف الهمّة مبالون من فطرتهم الى المشهيات الالكحوليّة وانهم اذا اتّبعوا خطّة والديهم (وهم اشد شهوةً لاتباعها واقلّ قوّةً على مقاومتها من ابناء المتأنّين من المسكر) يضيفون ضعفًا على ضعفهم ويزيدون ما في بنيتهم من الاستعداد الى العته والجنون قوّةً وهذا يورثونه لانسالهم من بعدهم

ومما عرفه بالاختبار امثال الشهير كولاردج الذين ورثوا من اباثهم شهوة لشرب المشهيات الالكحوليّة وضعفًا في ارادتهم جعلهم لا يستطيعون مقاومة تلك الشهوة على حين ان سائر قوام العقليّة والادبيّة السامية كانت تعينهم على مقاومتها كما يقنع المتأمّل بشدّة تعلق قوام العاقلة والادبيّة بما ورثوهُ عن اباثهم من مزاج بنيتهم الجسمانيّة وانهم قلما يطالبون ادبيًا عن نقائص ينسب جلها الى زلّات وسقام اقترفها اهلوهم من قبل ان يولدوا هم

ولنا شواهد ايضًا على انتقال الامزجة الخاصّة سواء حصلت تلك الامزجة عن رسوخ العادات واستحكامها او عن اسباب اخرى . ومن الغريب في هذا الصدد ما تحقّقه العلّامة برون سيكار الفسيولوجي الشهير من انّ بعض انواع الخنازير اذا قُطع فيها قطعًا مخصوصًا في الحبل الشوكي اصبحت يصيبها ما يشبه التشنّج الصرعي وذلك اذا قُرِصت في جلود وجوهها ولو قرصًا خفيفًا وحتى بعد شفاء القطع شفاء تامًا والغرب منها انّ غيرها من انواع الخنازير لا يحدث لها ما يحدث لتلك ولو قُطع فيها نفس القطع ولاحظ هذا العلّامة ان اولاد تلك الخنازير يصيبها ما يصيب آباءها اذا مُرِزت جلود وجوهها فانتقل اليها بالوراثة ما كان اصاب اباءها لسبب طارىء ولا شك ان ذلك السبب الطارىء قد اثر في الجهاز العصبي وكيّفه على نحو ما قد تؤثرهُ العادة وتكيفه فيه لطول المزاولة والالفة

ولا بدّ لي هنا من تنبيه افكار القراء الى انّ ابناء الكتّاب قد تجيء خطوطهم اشبه في تحرونها وهيئاتها بخطوط آبائهم وان تعلّموا الخط على معلمين آخرين . واعرف في بعض العيال ان خطوطهم متقاربة جدًا وان اكثرهم بعد ان يتقنوا الخط على معلمين آخرين تميل قواعدهم شيئًا فشيئًا حتى تشبه قواعد آبائهم وهم لا يقصدون وقد ذكر احد الجرمانيين عن ثبت ما يقرب من هذا وهو انّ ابناء الانكليز ولو تعلموا الخط في فرنسا تميل قواعدهم الى الخط الانكليزي المخصوص بآبائهم . ومن الملاحظ ايضًا ان من يتروضون على ركوب الخيل حتى يرسخوا في الفروسيّة تجيء اولادهم كانها معتادة على ركوب الخيل خلقةً واعرف ولدًا لا يبلغ العاشرة من العمر يركب الخيل الجياد ويجريها في الميدان بما

يخطر في البال مقال ابي الطيب المتنبي

ونظنها نُتجت قياماً تحتهم ونظنهم ولدوا على صهواتها

وابين من ذلك تعلُّم العزف على الآلات الموسيقيَّة والتصوير فانهُ لمن المحقق ان البراعة في الموسيقى والتصوير وسهولة اتقانهما متوقف كثيرًا على مزاج او ذوق خُلقيّ مودع في الفطرة فكل ولدٍ قد يمكنهُ ان يتعلم التصوير او العزف على آلة موسيقيَّة الى حدٍّ معيَّن وعلى نمط مخصوص الاَّ ان بعضهم لا يستطيعون الاَّ على اتقان بعض الشيء من هذين الفنين اتقانًا ميكانيكيًّا ولو بذل معلموهم كلما في وسعهم لتعليمهم وبذلوا هم ايضًا غاية جهدهم على حين ان غيرهم لاقل اشارة يدركون في الفنين ما يكاد اساتذتهم لا يصدقون انهم مستطيعونهُ فتندفع ايديهم في العزف والرسم اندفاع السهم الى الكلام كانما هم قد زاولوا ذلك مدات فالنوءُ تمام الالفة

ومن المعلوم ان ابناء الماهرين في الموسيقى والتصوير يجيئون كذلك فقد ذكر الدكتور كربنتر الذي اخذت عنهُ معظم ما جاء في العادة ونتائجها انهُ يعرف ابوين ماهرين في الموسيقى والتصوير فكان ابناؤهما عن آخرهم ميالين طبعًا الى درس احد هذين الفنين او كليهما لم يشذَّ واحد منهم

الخلاصة

انهُ بناء على ما للعادات العقليَّة والاديَّة الخاصة من التعلق بجهاز جسماني عصبي وبناء على ان العادة تفعل على هذا الجهاز فتكيفهُ تكييفًا معينًا على ما هو المشاهد والمحقق كان للعادة دخل في تكييف قوانا العاقلة والاديَّة الخاصة وانتقال كل ذلك بالوراثة الى اعقابنا. والمتعارف في مثلنا الدارج ان فرخ البط عوّام وهذا فيما ارى مأخوذ عن المشاهد من ان اكثر ابناء الكتَّاب واصحاب الرياسة والصناعة تظهر فيهم اذواق آبائهم ولو بعد حين. ومما اعرفهُ بين التلامذة ان ابناء الكتبة البارعين في الترسل والانشاء لهم في الغالب ذوق لطيف في الكتابة ما ليس مثلهُ لغيرهم من التلامذة على حين يدرسون جميعهم على استاذ واحد وهم ما بين العاشرة والرابعة عشرة من السنّ وكذلك ابناء الشعراء والرياضيين لهم في الغالب اذواق آبائهم وامالهم

ثمَّ اذا سلمنا ان القوى الاديَّة والعقليَّة الخاصة تنتقل بالوراثة فاحرى بالعامَّة منها ان تنتقل كذلك ولما كانت هذه القوى فطريَّة فينا ولكننا نهذبها بالعادة وتقويتها حتى يرجح ما حصل لها من الكيف ويستحكم اثرهُ ومن ثمَّ يرجح انتقالهُ بالوراثة الى بنينا وبني بنينا على

قدر ما نعني في تهذيب انفسنا وترويضها كان انّ من يهذب نفسهُ خير ممّن يملك على مدينة واولى باعتبار من سواهُ ولو انهُ من اكابر الامراء والقياصرة فانّ افادتهُ جنسنا البشري لا تنتصر على ما يكون منهُ من التعليم والقدوة والتأليف مدى حياتهِ بل تمتد الى الجنس عن طريق الوراثة فيترك ما كان من آثار انعابهِ ومزاولتهِ امر تهذيب نفسهِ منتقشًا على مجهزات بنيهِ وبني بنيهِ الى ما شاء الله ولا يخفى ما في ذلك من رفعة الانسانيّة وارتقاء المدارك العاقلة في الجنس عمومًا كل ذلك تقدير الحكيم الخبير واذا لم يكن ثمّ من باعثٍ يبعثنا على تهذيب انفسنا وتدريبها في ما هو مستحسن سوى هذا الباعث فكفى بهِ باعثًا يهون علينا مشاق الدرس وعناء اليقظة والسهر لادراك اسمى التصورات والتحلي بجلى الفضائل والكمالات فتظهر فينا غاية كمالاتهِ ويتجلّى فينا شيءٌ من مجالي علمهِ وحكمتهِ

الانتحار

اي قتل النفس

محبة الحياة فطرة في الانسان بل هي اقوى ما فُطر عليهِ ولذلك يلتفت علماء الاخلاق والآداب الى الانتحار اي قتل النفس كانهُ عمل من اغرب الاعمال التي يقدم عليها الانسان ومع هذا فما من احد الاّ ورغب في الموت ولو مرةً في حياتهِ وعزم ان يصرم حبل حياتهِ ولكن محبة الحياة تقاومهُ فيعدل عن عزمهِ واما اذا اشتدّ عزمهُ ولم يقوَ على مقاومتهِ فقد ينتحر اي يقتل نفسهُ ليتخلّص من مضض العيش

قيل ان الاستاذ ميرِ خطب مرةً في جمهور كبير في مدينة باريس وقال ما من احدٍ الاّ وقد ودّ الموت ولو مرةً في حياتهِ فان وُجد بينكم مَن لا يصدق عليهِ هذا القول فلينقضني علانيةً فصمتوا جميعهم ولم ينقضهُ احد منهم

ومما لا مرية فيهِ ان الانتحار يزداد رويدًا رويدًا في اوربا واميركا وفي كل البلدان التي انتشر فيها التمدن الاوربي ولذلك قلقت الافكار وبحث بعض العلماء بحثًا طويلاً في هذا الموضوع واستقروا حوادث الانتحار ليروا علاقتها بالشعوب والمذاهب والاحوال الاجتماعيّة كلها . وها نحن موردون نتائج مباحثهم وقد اقتطفناها ما كتبهُ الدكتور مورسلي والدكتور بلغرم والدكتور كربنتر والشهير دارون وغيرهم فنقول

لقد ظهر بالاستقراء انّ عدد الذين ينتحرون سنويًا قد زاد في بلاد النمسا بين سنة